الغيب والشهادة في القرآن الكريم (٣)

شهد الله أنه لا إله إلا هو

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

شهد الله أنه لا إله إلا هو

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

شهد الله أنه لا إله إلا هو، عبد المجيد بن محمد الغيلي، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ص ...

الفهرس:

مقدمة:

أعظم الشهادات هي الشهادة بوحدانية الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

سأتناول في هذا البحث الشهادة بوحدانية الله سبحانه وتعالى عما يشركون. فأتناول فيها شهادة الله بوحدانيته، وشهادة الملائكة بها، وشهادة أولي العلم بها. ثم أبين عدم وجود شهداء بالشرك، ثم إشهاد الله بوحدانيته، وإشهاد المؤمنين ربهم بشهادتهم بوحدانيته، وأخيراً جدال شهود أهل الباطل.

وقد حققت القول في مفهوم (الشهادة) و(الإشهاد) في بحثي: (مفهوم الشهادة في القرآن الكريم)، وبينت أن الغيب: (شيء موجود، ولكنه مستور بحجب من الظلمات أو النور)، والشهادة: (شيء موجود، ظاهر، غير محجوب). وبينت الفرق بين التركيب: شهد بالشيء، وشهد عليه. فليرجع إليه.

اللهم إني أشهدكَ بأني شهدتُ بما شهدتَ به ألا إله إلا أنت قائماً بالقسط.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

رمضان – ١٤٣٥هـ / يوليو ٢٠١٤م

abdmmys81@hotmail.com

(١) شهادة الله بوحدانيته

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. **أي: أظهر الله وحدانيته إظهارا بينا.**

مفهوم الآية:

في تفسير الزجاج: (حقيقته أنه علم وبيّن الله؛ لأن الشاهد هو العالم الذي يبيّن ما علمه، فالله عز وجل - قد دل على توحيده بجميع ما خلق، فبيّن أنه لا يقدر أحد أن ينشئ شيئا واحدا مما أنشأ). وقال البغوي: (أي: بيّن الله؛ لأن الشهادة تبيّن). وقال الرازي: (الوجه الثاني: أن نجعل الشهادة عبارة عن الإظهار والبيان، ثم نقول: إنه تعالى أظهر ذلك وبينه بأن خلق ما يدل على ذلك... الشاهد الحقيقي ليس إلا الله، وذلك لأنه تعالى هو الذي خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده). وهناك أقوال أخرى، قيل: علم الله، وقيل المعنى: قال الله، وقيل: كتب الله وقضى.

الشهادة – إذن -هي إظهار وتبيين، وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، **أي: شهد بوحدانيته، وشهادتها بها: إظهارها وتبيينها، ووحدانيته سبحانه وتعالى، هي الحق، و(الحق) في القرآن الكريم يدل على وحدانية الله، والله هو الحق، أي الواحد الذي لا شريك له.**

وقوله: (قائما بالقسط)، حال منصوب، والمعنى: شهد الله بوحدانيته في حال قيامه بالقسط، والله واحد دائماً وأبداً، وقيامه

بالقسط كذلك دائماً وأبداً. ومن ثم فالآية تتحدث عن أمرين متصلين، الأول: شهادة الله بالوحدانية، والثاني: قيام الله بالقسط.

والوحدانية هي الحق الذي خلق الله السماوات والأرض وما بينهما به. وهو الحق الذي تقوم الساعة به، وهو الحق الذي يجازى الناس به،

قال تعالى: (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى)،

وقال: (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ).

والإنسان ليس مأموراً إلا بهذين الأمرين: الشهادة بما شهد الله به (الوحدانية)، والقيام بما الله قائم به (القسط). فهو خليفة الله في أرضه، والخليفة يشهد بما شهد به مستخلِفه، ويقوم بما يقوم به مستخلِفه.

فهذه الآية إذن تبين أن الله (واحد) (قائم بالقسط). والوحدانية خلق الله الخلق كله بها، فهي غاية وجود الخلق ومنهم الإنسان [طوعا وكرها]. وأما القيام بالقسط فهو الغاية الأخرى لوجود الإنسان في الدنيا. فهو شيء استودعه الله إياه، وكلفه أن يقوم به. [طوعاً]. والحساب سيكون وفقا لهاتين الغايتين.

وسأتحدث الآن عن الغاية الأولى، وهي الشهادة بالوحدانية، وبيناتها، وكيفية التحقق منها، وأخيرا كيف يحققها الإنسان (غاية الشهادة).

وأما الغاية الأخرى (القيام بالقسط) فالحديث عنها في بحث آخر (قائما بالقسط).

❖ ❖

الشهيد (الشاهد) هو الله سبحانه وتعالى، والمشهود به: الحق (وهو ألا إله إلا هو)، فهو يشهد بالحق. والشاهد يثبت شهادته بعدة طرق، (راجع بحث: مفهوم الشهادة في القرآن)، وهذه الطرق: القَصّ، والبينات، والقسم.

وسأتحدث هنا عن ثلاثة أمور: بينة الشهادة، وكيفية التحقق منها، وغاية هذه الشهادة.

□

أولاً: طرق إثبات هذه الشهادة:

الطريق الأول: إثباتها بالبينات

ليس هنالك شهادة أصدق وأحق وأوضح وأبين وأظهر من هذه الشهادة، والبينات الدالة عليها هي أظهر البينات وأوضحها وأصدقها وأدلها على تلك الشهادة.

والله يقدم بينته على شهادته، فهي حجته التي تصدق شهادته. والله أخبرنا أن حجته البالغة (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ)، **قال الطبري**: (ويعني بـ"البالغة"، أنها تبلغ مراده في ثبوتها على مَنْ احتج بها عليه من خلقه، وقَطْعِ عُذْرِه إذا انتهت إليه فيما جُعِلت حجة فيه).

قال سبحانه: (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)، **فهو سبحانه قد استجاب له الخلق، وهذا دليل على أن حجته بلغت مبلغها، وأن شهادته الحق.**

❖ ❖

وقد أقام الله على هذه الشهادة بينتين: القيومية، والقيام بالقسط. وسأتحدث عن هاتين البينتين. [حديثي هنا سيكون عن القيام بالقسط كبينة من بينات الشهادة بالوحدانية].

وفي بحثي (قائما بالقسط) شرحت دلالة "القيوم" و"قائم بالقسط"، والفرق بينهما. وخلاصة ذلك كما يلي:

القيوم: **"مَن يقوم به كل شيء"**، فقِوام الشيء بوجوده وحفظه

ورعايته والشهادة عليه. فكل شيء لا يقوم أمره، ولا يستقيم حاله إلا بالقيوم. وذلك أن الله يخلقه أولا، ثم هو لا يغفل عنه، بل يحفظه، ويدبر أمره، ويهديه بنوره فيجليه لوقته. ومن ثم فهو في ملك ربه، ونفوذه، وعلمه.

و"قائم بالقسط": **"مَن تقوم به كل نفس"**، فقِوام النفس بحفظها ورعايتها والشهادة عليها أيضا.

فأما القيومية، فهي قسمان: قيومية عامة [وهي قيومية لكل شيء خلقه الله]. وقيومية خاصة. وتشتمل القيومية العامة على بينات: الخلق، والملك، والتدبير، والشهادة. وأما القيومية الخاصة فتشتمل على بينتين: الإحياء والإماتة [وهذه قيومية خاصة بكل نفس]، والبينة الثانية: التسخير [وهي قيومية خاصة بالإنسان].

وأما القيام بالقسط، فيشتمل على أربع بينات: تسوية النفس، وإنزال الميزان، وإنزال الكتب وإرسال الرسل، والشهادة.

❖ ❖

فهذه البينات دلت عليها آيات القرآن الكريم، ودل القرآن الكريم على أنها بينات أقامها الله لشهادته بالحق.

ويسميها القرآن الكريم: آية، وبينة [اسماً ووصفا]، وبرهان، وتقترن بشهادته ألا إله إلا هو، ويبين أن هذه البينات تدل على الحق.

فهي آية (علامة) يقيمها الشاهد للدلالة على صدقه، كما يصفها بأنها بينة، فهي آية بينة، أي علامة واضحة ظاهرة، لا لبس

فيها ولا غموض.

قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)،

وقال: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً).

وقال: (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)، **فهي آية وهي بينة.**

وقال: (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)، **فالقرآن الكريم سماه: بينة، فهي بينة أقامها لشهادته بالحق.**

وقال: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). **فقوله: (بينا الآيات)، أي: أظهرناها إظهارا بينا، فهي بينات: واضحات غاية الوضوح وظاهرات تمام الظهور، لتدل على صدق شهادة الله بألا إله إلا هو.**

كما يصف آياته بأنها براهين، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ). **فهو برهان يقدمه الشاهد على شهادته. وقد طالب من يشهد أن مع الله آلهة أخرى أن يقدم برهانه،**

قال تعالى: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)،

وقال: (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)،

وقال: (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)،

وقال: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ

لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ).

والله قد تكفل بتعليم الإنسان الاهتداء بهذه البينات إليه، فقال: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)، **أي: خلق الإنسان، وعلمه كيف يهتدي بالآيات البينات إلى الحق الذي شهد به الله سبحانه وتعالى.**



والآن سأتحدث عن هذه البينات:

(أ): بينات القيومية

ذكرت أن القيومية هي قِوام الشيء، وقِوام الشيء يكون بأربعة أركان، هي: (١) إيجاده (خلقه وتسويته)، (٢) وملكه، (٣) وتدبيره (والتدبير يشتمل على الحفظ والرزق)، (٤) والشهادة عليه. وهذه الأركان تبينها آيات الكتاب الكريم.

قال تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

فقد اشتملت آية الكرسي على ثلاثة من أركان القيومية: التدبير، والملك، والشهادة. وقد تحدثت عن الآية في بحثي: (السماء والسماوات في القرآن الكريم)، وبينت صلة الكرسي بحفظ السماوات والأرض وإمساكهما بإذن الله.

ولا يقوم على كل شيء قياما تاما إلا من كان: (١) خالقا لكل شيء. (٢) بيده ملك كل شيء. (٣). مدبرا ورازقا لكل شيء، حفيظا

ووكيلا عليه. (٤)شهيدا على كل شيء.

ومن ثم فبينات القيومية هي [القيومية العامة]: الخلق، والملك، والتدبير، والشهادة. [القيومية الخاصة]: الإحياء والإماتة (فالقيوم هو القدير على خلق الحياة في الشيء أو خلق الموت فيه)، والتسخير (فالقيوم هو الذي يسخر لمن اختاره لخلافته ما يحتاجه من لوازم المعيشة والقيام بالاستخلاف).

والقيومية عموما هي بينة على شهادة الله بأنه إله واحد. فبقيوميته لكل شيء، ينتظم أمر السماوات والأرض، وأمر الخلائق فيها، فالله خلق الخلق وتكفل بحفظه وقيوميته، قال تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ). **فهذه بينة أقامها على شهادته بوحدانيته، كما في قوله تعالى:** (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، **فهو القيوم على السماوات والأرض ومن فيهن. ولو لم يكن إله واحد لاضطرب أمر الخلائق، وفسد النظام، ولم يستطع الإله أن يقوم على كل شيء،**

قال تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)، وقال: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

والقرآن الكريم يسمي هذه البينة: الربوبية، فرب كل شيء هو الذي خلقه، وملكه، ودبر أمره، فكل شيء خاضع له، مسلم له. فالرب هو: المالك، والسيد المطاع، والمدبر لأمر مربوبيه. والله سبحانه وتعالى هو الإله الواحد، الذي له ملك السماوات والأرض ومن فيهن،

وتسجد له السماوات والأرض ومن فيهن (فكلها تطيعه قهرا)، وهو وحده الذي يدبر أمر الخلق. فربوبية الله لخلقه بينة على شهادته بأنه إله واحد (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ). **وهذه البينة من أكثر البينات التي تحدث عنها القرآن الكريم، واحتج بها، وكان المشركون يقرون بها، فألزمهم الله الحجة على ما تدل عليه.**

قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)،

وقوله: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)،

وقوله: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ).



□

البينة الأولى: الخلق

قال تعالى: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)،

وقال: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ).

فخلقه لكل شيء بينة على شهادته ألا إله إلا هو.

وقال: (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)، **فهو خلقهما بالحق، أي لتكون بينة على شهادته بالحق، وسماهما آية. وقال:** (أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)، **أي تعالى عن شركهم وقد خلق السماوات والأرض لتكون بينة على شهادته بالحق، ولذلك جاء بها كبينة لشهادته بالحق في الآية السابقة لها. وقال:** (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)، **وقوله:** (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ)... **والآيات هنا كثيرة. فالله خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، أي بينة على شهادته بالحق.**

وقوله: (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى)، **أي أن الله لم يخلق الخلق إلا ليكون بينة بالحق. فالله شهيد بأنه واحد، وقد خلق الخلق ليقيم هذه الشهادة. وقوله (وأجل مسمى)، أي جعلها بينة لشهادته إلى أجل مسمى، فإذا جاء الأجل المسمى لم تعد بينة؛ لأن الله سبحانه وتعالى سيحق الحق بنفسه، ويذعن الخلق جميعا له، ويتبين للناس كلهم أنه ما من إله إلا الواحد القهار** (لِمَنِ

الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ). **وهذا كقوله:** (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، **فيجزي الله في ذلك اليوم كل نفس بما كسبت، فمن آمن به وبشهادته وببيناته أدخله جنته، ومن كفر به وبشهادته وببيناته أدخله ناره.**

فالله خلق الخلق، بالحق، و(عالَم الشهادة) سمي كذلك؛ لأنه بينة الله على شهادته بالحق، أي بأن الله واحد، فأظهره الله بعد أن كان غيبا، وذلك شهادة الله بأنه حق (إله واحد لا شريك له).

وفي كل شيء له آية ❖❖❖ تدل على أنه الواحد

وقد جعل الله إقرار الناس بهذه البينة حجة عليهم في عبادة إله واحد لا شريك له،

قال تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)،
وقال: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ).



التسوية والتصوير:

ويتصل بهذه البينة إتمام خلق الشيء بتسويته وتصويره.

فالنظام العام الحيوي الموحد لخلق النوع الواحد بينة على أن الخالق واحد، والقرآن الكريم يسميه: التصوير، فكل نوع من

المخلوقات له صورته الموحدة؛ فلا نجد إنسانا في صورة أسد، ولا أسدا في صورة سمك، ولا طيرا في صورة كلب. وبالرغم من هذه الوحدة التصويرية، فإن هناك تمايزا داخل كل نوع، فلا تجد إنسانا يشبه إنسانا آخر، بل ثمة صورة خاصة لكل إنسان. وهكذا سائر الأفراد داخل كل نوع. فالله هو المصور سبحانه. المصور، أي الذي أعطى كل مخلوق صورة مميزة له عن غيره، تتناسب مع وظيفته.

قال تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)،

وقال: (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)،

وقال: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

وقال: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ).

❖ ❖

كما أن التصوير يتناسب مع الوظيفة التي خلق لها الشيء، فمثلاً، على مستوى الأنواع، تجد أن صورة الطائر بجناحين وعظام جوفاء خفيفة وعضلات صدر قوية... تتناسب مع وظيفة الطيران. لنتخيل لو كان الطير كالسمك، أو كالأسد. وكذلك السمك صوره الله ليتناسب مع بيئته ووظيفته في الماء.....

وعلى مستوى النوع الواحد، كل شيء صوره الله تصويرا يتناسب مع وظيفته، فالإنسان مثلا، يده مصورة بهذه الهيئة التي

تتناسب مع وظائف اليد والأعمال التي تقوم بها. وعينه تناسب وظيفتها، وأذنه... الخ.

(هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ).



فالتصوير إذن ليس مجرد الصورة الظاهرة للمخلوق، بل هو النظام الحيوي الذي يميز المخلوق ويجعله متناسبا مع وظيفته، فالإنسان مثلا: صوره ربه تصوير خاصا يتناسب مع بيئته ووظيفته في الأرض، ويتناسب مع تسخير المخلوقات الأخرى له، وقدرته على الانتفاع بها، وقدرته على تحقيق الخلافة في الأرض. والعين مثلا، تتناسب أنظمتها وأجهزتها وشبكاتها وعدساتها المعقدة مع وظيفة الإبصار... فسبحان الخالق الواحد.

والقرآن الكريم يعبر عن هذه الحيوية بمصطلح: التسوية، (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)، وتسوية الخلق: "إتمام الخلق وفقا لما قُدّر له أن يكون، بحيث يأخذ خصائصه التي تميزه عن غيره" [راجع بحثي: التسوية في القرآن الكريم]. وتسوية كل مخلوق تكون خاصة به بحيث تتناسب مع بيئته ووظيفته.

□

البينة الثانية: الملك

تقرر آيات القرآن الكريم أن كل شيء مملوك لله سبحانه وتعالى: (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، **وقال:** (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، **ومن ثم فهو المحيط بخلقه، لا يفوته منهم شيء:** (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا)، **وقدير لا يعجزه منهم شيء** (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، **وقال:** (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)، **ومقتدر يفعل ما يريد** (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)، **وقال:** (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ).

فملكه لكل شيء بينة على شهادته بوحدانية، فلو كان ثمة آلهة أخرى لكان لهم ملك في السماوات والأرض، ولتصرفوا بملكهم كما يشاؤون.

قال تعالى: (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا)،

وقال: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)،

وقال: (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)،

وقال: (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا).

وقال: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي

السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ)، وقال: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ).

وقال: (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ)، **فالملك الحق هو الملك الذي لا ينازعه فيه أحد، أما في الدنيا فإن المشركين يزعمون منازعته بملكهم أو ملك آلهتهم.**

ومالك الملك هو ذو الكبرياء والقهر والقدرة،

قال: (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)،

وقال: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)،

وقال: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)،

وقال: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا).

فمن يملك كل شيء فإن الحكم كله له؛ إذ هو ذو التصرف المطلق (لَهُ الْحُكْمُ)، وإليه مرد الأمور كلها (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)، **وقال:** (الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)، **أمره نافذ** (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)، **وقال:** (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، **ومشيئته مطلقة** (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)، **وقال:** (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ).

بيده القهر والإرادة والتصرف كما يشاء:

قال: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)،

وقال: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)،

وقال: (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

وقال: (قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

ومالك الملك يخضع له كل شيء:

قال: (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)،

وقال: (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)،

وقال: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)،

وقال: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)،

وقال: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)،

وقال: (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا).

لا يتقدم أحد بين يديه إلا بإذنه

(وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى).

فهو المهيمن القهار

قال: (قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)،

وقال: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ).

□

البينة الثالثة: التدبير

قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)، **وقال:** (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)، **فهو يدبر الأمر، وله ملائكة يدبر بهم أمره، قال تعالى:** (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا).

تدبير الخلق هو إدارة شؤونه، وتصريفها، والقرآن الكريم يذكر كثيرا من مظاهر التدبير، كتصريف الرياح، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وسوق السحب، وإنزال الماء، ومرج البحرين... وغير ذلك من مظاهر التدبير. وكذلك مظاهر التدبير لكل نفس، فكل نفس في يد ربها يقلبها كما شاء، ويصرف شؤونها وأحوالها، فيرفع ويخفض، ويبسط ويقدر، ويعطي ويمنع، ويحيي ويميت ... فهو الذي استخلف الإنسان في الأرض، وهو الذي يدبر أمره.

فهو سبحانه وتعالى في كل لحظة يمسك خيوط كل المخلوقات، ويقضي حاجاتها، ويصرف كافة شؤونها، ما تعلمه وما لا تعلمه، ويطلع عليها، ويراقبها، لا يشغله مخلوق عن آخر، ولا نفس عن أخرى، ولا تقيّ عن شقيّ، ولا طائع عن عاصي، ولا شاكر عن جاحد.

قال: (يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)،

وقال: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)،

وقال: (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)،

وقال: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

قال تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)، **فالأمر له وحده، يدبره وحده دون شريك.**

وتدبير أمر الخلق كله، دون اختلال في هذا التدبير، هو بينة على أنه ما من إله إلا إله واحد. فهو الذي ينفرد بالتدبير. فانتظام أمر المخلوقات، وترابط أجزائها، واتساق قوانينها، بينة على أنها خاضعة لحاكم واحد.

ولو لم يكن إله واحد يدبر أمر الخلق لفسد نظام الخلائق، واضطرب الأمر. ولله المثل الأعلى، فلو أن هناك مديرين لمؤسسة واحدة، لتنازعا الصلاحيات، واضطربت إدارتهما للمؤسسة، واختل أمر المؤسسة، وانتهى قِوامها. فلو كان ثمة آلهة لفسد نظام الخلق، إذ يتنازع الشركاء وينسون أمر المملوك:

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

ولو كان ثمة أكثر من مدبر لم يكن النظام في الخلق واحدا، بل تتعدد الأنظمة، ولكننا لا نرى إلا نظاما واحدا من الذرة إلى المجرة.

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

وبعض المشركين يعترفون أن الله الذي يدبر الأمر (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)، **فهي حجة عليهم، فمن يدبر الأمر هو الإله الواحد الذي ينبغي أن**

يُعبَد.



ومن التدبير الحفظ. وهذا ما اشتملت عليه آية الكرسي (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)، **فهو الحي الذي لا يموت، فيحفظ خلقه، دون أن يغفل عنهم** (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)، **بل يحفظه.** (إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ). **وقال:** (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا).

وحفظه لكل شيء بينة على شهادته بوحدانيته، فلو لم يحفظ الخلق لما قام أمر شيء من خلقه، فكل الخلق مفتقر إلى رب غني يحفظه، ويقيم أمره.

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)،

وقال: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ).

وهو سبحانه وتعالى يحفظ كل نفس كما يحفظ كل شيء،

قال: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)،

وقال: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَرَقِيبٌ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِن أَمْرِ اللَّهِ)،

وقال: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً).



والحفيظ على كل شيء هو وكيل عليه، (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)، **والوكيل هو من يستقل بأمر موكِّله، استقلالا تاما، ويتولى شؤونه. ووكالته عليه تعني أنه قائم عليه، وليّ عليه، قادر على نفعه وضره، قادر على الإتيان به. فوكالته بينة على شهادته بوحدانيته قال تعالى:**

قال: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)،

وقال: (وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا).

وهو وكيل على المؤمنين يتولاهم برعايته وتيسيره. (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)، (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ). **فهو مولى المؤمنين باختيارهم، وليس مولى للكافرين، وهو مولى الخلق كلهم ومنهم الكافرون كرها، فهو يتولاهم ويرعاهم، وكلهم يردون إليه** (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ). **فالوكيل هو من يحفظ كل شيء ويأتي به** (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)، **والخلق كلهم مردهم إليه فيحكم بينهم** (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ).

والحفيظ الوكيل هو من بيده النفع والضر لمن يحفظه، بيده العز والذل، بيده بسط الرزق وقدره. فهو يدعو الإنسان إلى أن يتوكل عليه، ويتجه إليه، فلا يعبد إلا إياه، ولا يدعو غيره، ولا يرجو غيره، ولا يخشى سواه، ولا يستعين بغيره. قال تعالى:

(وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)،

وقال: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا)،

وقال: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠)

قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)،

وقال: (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)،

وقال: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)،

وقال: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)،

وقال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

أما الآلهة الأخرى فهل تجيب من يدعوها أو تستجيب له؟!

قال: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)،

وقال: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)،

وقال: (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ

إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)،

وقال: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ).

ومن ثم فالمؤمن يتوكل على ربه الوكيل الحي الذي لا يموت، ويفوض أمره إليه، ويتولاه. فمن أبصر: من يتوكل على الوكيل الواحد، أم من يتوكل على من لا يملك من الأمر شيئا؟

قال: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)،

وقال: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)،

وقال: (قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)،

وقال: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ). (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ).

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم دائما ما يدعو: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، وأصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)، (اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك)، وكان إذا ودّع أحدا قال له: (أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه).



ومن التدبير أيضاً: الرزق

ومن البينات التي أقامها الله لشهادته بأنه إله واحد: الرزق، فهو خلق الخلق، وقام عليهم، ورزقهم، فهو رزاق كل شيء، قال تعالى: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)،

وقال: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، **وقال:** (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، **وقال تعالى:** (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا)، **أي يمده بقوته وأسباب رزقه.**

فكيف يعبد الإنسان آلهة لا ترزقه؟!

قال: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)،

وقال: (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)،

وقال: (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

وقوله تعالى: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)، **أي: الله وحده الذي يرزقكم فكيف تكذبون به، وتشركون معه من لا يرزقكم، فالمعنى: أتجعلون مقابل زرقه لكم تكذيبكم به، بدلا من الإيمان به؟! كما قال:** (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)، **وقال:** (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ). **أي: فكيف تصرفون عنه بتكذيب أو شرك إلى غيره؟!**



□

البينة الرابعة: الشهادة

فالقيوم شهيد على ما خلقه، (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ). **فكل شيء ظاهر لله سبحانه تمام الظهور، واضح غاية الوضوح، فهو عليه شهيد، أي: ظاهر عليه، مطلع عليه، بصير به، فهو شهيد بعلم.**

وشهادة الله على خلقه بينة جلية على شهادته بوحدانيته. فالخلق جميعا يشهد عليهم رب واحد، هو الذي خلقهم وهو عليم بهم، خبير بهم، وكيل عليهم. (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)، **بصير بهم** (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ).

والشهيد على كل شيء هو العليم بكل شيء: (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)، **عنده علم الغيب والشهادة** (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)،

وعلمه بكل شيء علم إحصاء وتفصيل:

(وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)،

وقال: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا)،

وقال: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

قال تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) **فهو عالم الغيب والشهادة، الذي لا يخفى عليه شيء لا من الغيب ولا من الشهادة.**

والشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، **وقال**: (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ).

البينة الخامسة: الإحياء والإماتة

جعل الله الإحياء والإماتة بينة دالة على صدق شهادته بأنه إله واحد، ومن ثم فهو الذي يتصرف في خلقه بالحياة والموت كما يشاء، قال تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ)، أي بينة على شهادة الله بالحق، وهذا ما قضاه سبحانه: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، فقد بيّن أنه لا إله إلا هو بأن كل شيء سيهلك إلا وجهه سبحانه وتعالى عما يشركون. ولذلك تقترن شهادته بالتوحيد بالإحياء والإماتة، كقوله: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ)، في سورتي الأعراف والدخان. وقال: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

قال تعالى: (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، فقوله (إن كنتم غير مدينين)، أي مملوكين كما قال الفراء، قال ابن عطية: (والمدين: المملوك هذا أصح ما يقال في معنى اللفظة هنا، ومن عبر عنها بـ"مُجازَى" أو بـ"مُحاسَب" فذلك هنا قلق، والمملوك يقلبه المالك كيف يشاء.. فمعنى الآية: فلولا ترجعون النفس البالغة الحلقوم إن كنتم غير مملوكين مقهورين).

وقد احتج خليل الله إبراهيم بهذه البينة على الكافر:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). وكذلك احتج بها على قومه: (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ).



□

البينة السادسة: التسخير

سخر الله للإنسان ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وامتن عليه بذلك، وتسخيره لها بأن جعلها مهيأة صالحة لمنفعة الإنسان، فكلها تتظافر في تقديم مختلف المنافع له. وتسخيرها بينة على شهادة الله بوحدانيته، فلو لم يكن إله واحد لما استطاع أن يسخر كل شيء بنظام واحد للإنسان. والتسخير، يمثل أحد وجوه قيومية الله على الإنسان، ورعايته له، وعنايته به. فهي قيومية خاصة بالإنسان.

وهذه البينة يثبتها القرآن بطريقين،

الطريق الأول: امتنان الله على الإنسان بأن سخر له هذه النعم، وجعلها على هذا الحال لتكون صالحة للإنسان.

قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، فهي آيات وبراهين على شهادته بالحق، ولا يتبينها إلا قوم يتفكرون.

وقال: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

وكقوله: (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)،

وقال: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ

رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)،

وقال: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ).

واحتج على الخلق سبحانه بذلك: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ). والآيات في الباب كثيرة.



والطريق الثاني، بيان الإمكانية، وهي قدرته سبحانه وتعالى أن يجعل هذه المخلوقات غير مسخرة للإنسان، فيغير نظامها، فتتعذر معيشة الإنسان على الأرض.

كقوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)،

وقوله: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)،

وقوله: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ).



والعلماء اليوم يقولون أن كل قوانين الفيزياء مضبوطة بدقة؛ لظهور حياتنا واستمرارها. فكل شيء مسخر لأجل الإنسان.

□

(ب): بينات القيام بالقسط:

الله قائم على كل نفس بالقسط. وسأتحدث هنا عن قيام الله بالقسط على الإنسان [كبينة على الشهادة]، فهو لم يخلقه عبثا (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)، ولم يتركه سدى (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى).

وقد حقق الله قيامه بالقسط على كل نفس، بمجموعة أركان، هي:

1) **تسوية النفس، سواها الله فألهمها فجورها وتقواها.**
2) **إنزال الميزان (ميزان النفس).**
3) **إنزال الكتب، وإرسال الرسل.**
4) **الشهادة عليها.**

فالقيام بالقسط بينة على أنه ما من إله إلا إله واحد؛ فهو الذي يقوم بالقسط على كل نفس، ميزانه واحد، ورسالته واحدة، والنفس التي سواها واحدة، ووعده واحد. سأتحدث عن البينتين الأوليين هنا، وعن البينتين الأخريين تحت عنوان (إثبات الشهادة بالقَصّ)، ضمن هذا المبحث.

□

البينة الأولى: تسوية النفس

قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)، فكل نفس خلقها الله، قد سواها فألهمها الفجور والتقوى. وكل نفس لديها استعداد تام لإقامة القسط، حتى ولو لم يأتها الوحي. فالإنسان بطبيعته يمكنه أن يميز في عديد من المواقف بين الظلم والجور، والنافع والضار. وبذلك يستطيع الإنسان أن يدبر أمره وأمر مجتمعه.

كما أن النفس الحيوانية عامة، سواها الله على أنظمة موحدة، تجدها عند الإنسان كما تجدها عند الحيوانات، كرحمة الأم بولدها، ورعاية الوالدين لأولادهما، وتبادل الشعور. وكذلك السنن الأخرى، كالنوم، والأكل والشرب والنكاح... فكل النفوس تقوم على سنن موحدة، وهذه السنن العامة بين سائر الحيوانات.

أما السنن الخاصة بالإنسان، فهي الفطرة التي فطره الله عليها، فالناس يستخدمون السمع والبصر، والأيدي والأرجل بطريقة متشابهة، والنفع العام بهذه الوسائل يكون موحدا. وقد تحدثت عن فطرة الناس في (مدخل: فطر). فالفطرة دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى. (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

فتسوية النفوس كلها على نظام عام واحد، دليل على أن الذي سواها إله واحد، فلو كان ثمة آلهة لوجدنا كل إله يسوي النفس

البشرية وفق نظام مختلف عن نظام الإله الآخر. (راجع بحث: التسوية في القرآن الكريم).

□

البينة الثانية: إنزال الميزان

قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ)، أي: والميزان أنزله بالحق؛ ليكون بينة على شهادته بالحق. فإنزال الميزان بينة، وهو غاية أيضا.

والميزان الذي أنزله هو (ميزان النفس)، فالنفس التي سواها الله تستطيع أن تقدر مثقال كل أمر بوزن في ميزان النفس، فتزنه قبل كسبه. (انظر: قائم بالقسط، فهناك بينت دلالة الميزان، فهي ثلاثة موازين: ميزان الله، وميزان النفس، وميزان المعاملات، وكلها مذكورة في سورة الرحمن).

فالله أنزل الميزان ليقوم الناس بالقسط. وكما قضى الله بأن يحقق شهادته بالوحدانية في خلقه [فمن لم يشهد بها في الدنيا فسيشهد بها في يوم آخر]، فكذلك قضى بأن يُحقق قيامه بالقسط في خلقه جميعا. تحققا تاما، دون أن ينقص منه مثقال ذرة.

والناس لا يرون القسط متحققا في حياتهم، فهناك كثير من الفجور والمظالم والاعتداء على الحقوق بين الناس. كما أن هناك بشراً يتعبدون ربهم بالعدل والتقوى والفضيلة والإنصاف... فهل من العدل أن يستويا؟! فدل ذلك على أن ثمة يوما آخر يحقق الله فيه القسط بين الخلق. قال تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، ففي هاتين الآيتين يشير إلى بينتين من بينات شهادته بوحدانيته، الأولى: قيامه بالقسط (وهو

يقتضي تحقيق العدل)، والثانية: بينة الخلق. وهذا كقوله: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ).

ثم إن قضاءه بالقسط يوم القيامة دليل على شهادته بوحدانيته؛ فلو كان ثمة آلهة لقضى كل منهم قضاء مختلفا، فالإله الواحد مثلا يقضي ببطلان الشرك فكيف يقضى بذلك لو كانوا آلهة شركاء؟!

كما أن إنزال الميزان بينة على شهادة الله بوحدانيته، فهو سبحانه لم يترك الخلق سدى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فما كان الله ليخلقهم بالحق ثم يتركهم عبثا، بل أرسل إليهم الرسل، وأنزل معهم الميزان، فدل ذلك على أن القائم بالقسط عليهم إله واحد. ولو كان له شريك لما كان قائما على كل نفس، ولتنازع الشركاء ذلك، قال تعالى: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ)، فكيف يكون له شركاء وهو الذي يقوم على كل نفس؟! فقيامه على كل نفس يشهد ألا إله إلا هو.

كما أن الله سبحانه وتعالى رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات، فتفاوتوا في الغنى والجاه والقوة والإدراك... ليحقق الابتلاء بالميزان في الدنيا؛ فالميزان جعله الله في الدنيا ابتلاء، وجعله في

الآخرة جزاء. قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)، (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ). فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة كأمم الحيوانات، فتكون أمة خاضعة قانتة له، مسلمة لربها، ولكن الله لم يجعل الناس كذلك، بل جعلهم مختلفين؛ ليتحقق الابتلاء.

وإذا كانت قيومية الله الواحد تحفظ الخلق من الفساد والاضطراب (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)، فكذلك قيام الناس بالقسط في الدنيا يحفظ الحياة من الفساد والاضطراب، وقيامهم بالقسط يحفظ النظام بينهم؛ فلا يبغي بعضهم على بعض، ولا تفسد مجتمعاتهم، فيحقق ذلك الأمن والسلام في الأرض.

فهذا النظام الذي يحقق التعاون بين الناس، ويحقق لهم الأمن، دليل على الوحدة، فالذي شرعه إله واحد، لا شركاء يتنازعون الخير والشر والحق والباطل.

وقد أظهر الله دينه في الدنيا، وأكمله للناس، وهذا فعله. وأمر الناس بأن يقيموا هذا الدين في الأرض، وإقامته إقامة للقسط في الأرض، ولكن ذلك لن يكون تحققه تماما إلا في الآخرة.

❖ ❖



الرحمن الرحيم

يقترن "الرحمن" غالبا بـ"الرحيم" ﻓﻲ القرآن الكريم، وكل سورة تبدأ بالبسملة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). أما "الرحيم"، فالمفسرون واللغويون على اشتقاقه من "الرحمة"، وأما "الرحمن" فقد اختلفوا ﻓﻲ اشتقاقه.

والذي يتبين لي من سياق الآيات الكريمة أن "الرحمن" هو أصل الأشياء الذي تعود إليه كلها، واشتقاقه متصل بالرَّحِم لا بالرحمة، ففي الحديث القدسي الذي رواه الترمذي، وصححه الألباني وغيره: (قال الله عز وجل: أنا الرحمنُ، وأنا خلقتُ الرَّحِمَ، واشتققتُ لها من اسمي، فمن وصلها وَصَلْتُهُ، ومن قطعها بتَتّه)، واستخدامه ﻓﻲ سائر الآي ليس ﻓﻲ مقام الرحمة والعطف، بل ﻓﻲ مقام الخلق والتدبير والألوهية والربوبية (كالله).

فـ"الرحمن" هو الذي يكون أصلا لوجود الشيء، ولحفظه، ولرعايته، ولمده بأسباب البقاء. كما أن الرحم لا يمكن أن يكون الجنين إلا به، ففيه نشأته، ورزقه، وحفظه، ورعايته.

تأمل هذه الآيات، وهي تبين أن "الرحمن" يرتبط بالقيومية.

[الخلق]: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ).

[الملك]: (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا)

[التدبير]: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

[الرزق]: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ).

[الحفظ]: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)، (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

[الشهادة]: (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)

فالرحمن إذن سمي؛ لأنه القيوم على كل شيء، أما الرحيم، فإن هذا الاسم يتصل به لأنه القائم على كل نفس. فالله برحمته قام بالقسط على كل نفس، فأنزل لها الميزان الذي تهتدي به، وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وشهد عليها ليجازيها بكسبها بما تستحقه.

ولذلك فـ"الرحيم" يرتبط غالبا بالآيات التي تتحدث عن قيام الله بالقسط على الناس (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)، (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) وحين يدخلون الجنة (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ).

❖ ❖

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

فالرحمن والرحيم، هما اسمان دلا على بينتيه اللتين أقامهما لشهادته بأنه إله واحد، القيومية (ودل عليها بالرحمن)، والقيام بالقسط (ودل عليها بالرحيم).

□

الطريق الثاني: إثباتها بالقَصّ:

أثبت الله شهادته بالقَصّ على الناس، وإخبارهم، بشهادته بوحدانيته، وببينات شهادته. فالبينات المذكورة آنفا هي بينات منصوبة في الآفاق وفي الأنفس، وفي الوقت نفسه فقد أنزل الله الكتب وأرسل الرسل لتخبر الناس بهذه البينات، ودلالتها على وحدانيته، وتقص عليهم أنباء الغيب، وتخبرهم عن ربهم، ولقائه. وخاتم كتبه القرآن الكريم وخاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم، وقد شهد الله بهما كما شهد بوحدانيته [وسأفصل هذا لاحقاً].

إنزال الكتب وإرسال الرسل

أنزل الله الكتب وأرسل الرسل إلى الناس؛ ليكونوا بينة على شهادته بالحق، وحتى لا يكون لأحد عليه حجة، قال تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا).

قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)، (قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ)... الخ. أي نزل الكتب وأرسل الرسل بالحق، فشهادة الله بالحق عن طريق إنزاله الكتب وإرساله الرسل. وقال سبحانه: (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ)، فهي آيات يتلوها سبحانه لتكون بينة على شهادته بالحق. وقال: (وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ).

والقرآن الكريم هو البينة الخاتمة (بالنسبة إلى الكتب)، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو البينة الخاتمة (بالنسبة إلى الرسل)، قال

تعالى: (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)، فهو بينة أقامها لشهادته بالحق. وقال: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)، (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ)، (قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)، (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ). وسمي القرآن الكريم بيانا (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ)، وتكفل الله ببيانه (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ). وقال تعالى: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ)، أي لتبين لهم الحق في مسألة وحدانية الله.



القَصّ: إنباء وإخبار

أشرت إلى أن الله سمى كتابه: القصص، فقال: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، فهو قصص وإخبار للناس بما رأى الله وسمع، وهو يحقق شهادة التوحيد (وما من إله إلا الله). وقال سبحانه (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)، فالله هو الحق الذي يقص الحق، وهو خير الفاصلين، فهو إذا أنبأ فقد أتى بالنبأ اليقين، وإن أخبر فقد أتى بالخبر الصحيح.

والله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق، وأمر القلم فكتب مقاديرهم إلى يوم القيامة، فكل شيء موجود، وإنما يجليه الله لوقته، (ما يسميه الناس: المستقبل)، قد وُجد ولكنه لا زال غيبا، وسيجليه الله لوقته. وقد تحدثت عن هذا عند حديثي عن الغيب، وعند حديثي

عن الظلمات والنور. وذكرت أن الغيب ثلاثة غيوب: غيب لم يظهر، وغيب ظهر ثم استتر، وغيب محجوب بالنور. والله سبحانه وتعالى (عَلَّامُ الْغُيُوبِ)، فهو ينبئ بعلمه، ويخبر بعلمه. ينبئنا عن الغيب الذي ظهر ثم استتر، ويخبرنا عن الغيب الذي لما يظهر، وعن الغيب المحجوب بالنور.

فالقَصّ إذن: إنباء وإخبار. وقد بينت الفرق بينهما في بحث (مفهوم الشهادة في القرآن).

قال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ)، فقَصّ الله هو الحق، فهو يقص بعلم، فكان ذلك دليلا بينا على أنه الواحد القهار العليم بكل غيب.

والله سبحانه وتعالى حين يبعث الإنسان يوم القيامة سيقص عليه ما عمله بعلم، قال سبحانه: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ).

قال تعالى: (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)،

وقال: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)،

وقال: (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

وقد تحدثت آنفا عن بينة الشهادة، فالله شهيد على خلقه كلهم، وتلك الشهادة العامة التي تقتضيها قيوميته. كما أن الله شهيد على كسب كل نفس، وهذه الشهادة الخاصة التي يقتضيها قيامه بالقسط.

فشهادته عليهم تعني أنهم ظاهرون له ظهورا بينا، لا يخفى عليه منهم شيء، فيعلم كل كسب يكسبونه، وكل مثقال ذرة يعلمه، ثم يبعثهم فينبئهم بكل ما عملوه، فهو المحصي الحسيب.

قال سبحانه: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).



والله سبحانه وتعالى يخبر الناس عن أحداث الساعة، وعن مشاهد القيامة، وعن الحساب والجزاء، وعن الجنة والنار، ويكاد الحديث عن اليوم الآخر يكون ثلث القرآن الكريم. فهذا الحديث الطويل لم يكن عبثا، وإنما هو إخبار من الله للإنسان بمستقبله الذي لم يره، ولكن الله قد شهده، ولـمّا يجلّه لوقته، وسيجليه بإذنه. فهو إخبار بعلم. والله سبحانه وتعالى يخبرنا إخبارا مستفيضا عن تلك المشاهد؛ لأنها المستقبل الحقيقي للإنسان، فثمة خلود دائم، إما الجنة وإما النار، فلا تنفع حسرة ولا ندامة، ولا تغني معذرة، وكل نفس بما كسبت رهينة.



فالقرآن الكريم هو قصة يقولها الله سبحانه وتعالى، ويأمر رسوله بأن يقولها للناس؛ فيسمعونها، فيتفكر منهم من تفكر. قال تعالى: (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). ورسله مهمتهم أن يقصوا آيات الله على الناس: (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ

يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي)، (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا).

❖ ❖

وقصص القرآن الكريم تحقق شهادته بوحدانيته، فهو سبحانه القادر، يعطي ويمنع، يرفع ويخفض، يعز ويذل، ينصر ويمكر، ينتصر وينتقم، ينجي ويهلك، يوفق ويخذل، يستجيب ويغيث. كما تبين نعمه على أوليائه، ونقمه على أعدائه... تأمل قصص سورة مريم، والأنبياء، وغيرها من القصص.

كما تثبت حقيقة البعث، كقصة الذي مر على قرية، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وقصة أصحاب الكهف، وقصة بقرة بني إسرائيل... الخ.

❖ ❖

□

السنن الخالية:

الشهيد هو من يجازي من يشهد عليهم بكسبهم، (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)، فهو قائم على كل نفس بكسبها، يعلم كسبها، ثم يجازيها عليه. فالجزاء دليل على وحدانيته، وهو بينة أقامها الله على شهادته بوحدانيته.

وقد قرر القرآن الكريم أن الدنيا ليست دار جزاء، بل دار الجزاء هي الآخرة، ففيها ينتصر الله لرسله وللمؤمنين، وينتقم من الجاحدين له، وفيها تكون الاستجابة التامة لمن آمن به. فقيام الله بالقسط لن يتحقق تمامه إلا في الآخرة، وقد بينت ذلك عند حديثي عن القيام بالقسط.

إلا أنه سبحانه وتعالى أراد أن يجعل للناس في الدنيا بينة، يقيمها على شهادته بالحق، أنه لا إله إلا هو، وأنه يقوم بالقسط، وأن ثمة أجلا مسمى يحاسب الناس على إيمانهم بهذه الشهادة أو كفرهم بها. فحقق هذه البينة في تاريخ البشرية، ولم يجعلها سنة مطردة، فليس كل رسول منصوراً في الدنيا، وليس كل مكذب مُهلَكاً في الدنيا، وإنما كان تحققها في أزمنة من التاريخ البشري؛ لتكون بينة لمن يأتي، كما قال: (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً)، وقال: (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)، وقال: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)، فهي بينة لمن وراءهم من الناس.

والقرآن الكريم يسمي هذه البينة أيضاً (سُنَّة)، فتارة يضيفها إليه (سنة الله)، وتارة يضيفها إلى السابقين (سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ)، (سُنَنَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ). فالسُّنّة تستخدم في القرآن الكريم للدلالة على: الآيات التي جعلها الله في الأمم الخالية، من رعاية لأوليائه، وانتقام من أعدائه؛ لتكون بينة شاهدة على أنه الإله الحق الذي لا شريك له.

قال تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)،

وقال: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا)،

وقال: (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا).

ولذلك يطلب كثيرا من الناس أن يسيروا في الأرض لينظروا عاقبة المكذبين، فينظروا تحقق هذه البينة، ويستدلوا بها على صدق شهادة الله بأنه إله واحد،

قال تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)،

وقال: (اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)،

وقال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ

الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ).

وقال سبحانه: (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)، وقال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ). أي هو مولى المؤمنين الذين وحدوه فنصرهم، فأين الشركاء الذين عبدهم المشركون، لم لم ينصروهم؟ (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)، (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ). فيا عجبا لقوم يعبدون ما لا ينصرهم، بل هم ينصرون آلهتهم (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)!!

كما يسميها القرآن الكريم: عاقبة، وذلك نظرا إلى الخاتمة النهائية للمحسنين أو المجرمين، فعاقبة الأمور كلها للإله الواحد (وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)،

قال تعالى: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)، وقال: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)،
وقال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ)، (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ).



فالآيات الحاسمة هي بينة على شهادة الله بوحدانيته، فهو إله واحد في السماء والأرض، ويتعظ بها من يأتي من الأقوام بعدهم. ولذلك تقترن بقوله (بالحق)، كقوله: (فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة بالحق)، قال المفسرون: أي باستحقاقهم للعذاب، وبعضهم قال: بعدل الله، والوجه عندي أنها من هذا الباب، أي: أخذتهم الصيحة، فكانت بينة لشهادة الله بالحق، وهي أنه لا إله إلا هو.

وكان الأنبياء يحتجون على قومهم بهذه البينة، فيلفتون أنظارهم إلى من سبقهم ليكون ذلك زاجرا لهم وواعظا، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ). فهذا شعيب يقول: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)، ومن قبله هود قال لقومه: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ)، وصالح: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ).

وقد تحدث القرآن الكريم كثيرا عن هذه الآيات، فهي آيات بينة من تاريخ الإنسان نفسه، على أن الله هو الحق. وتمتلئ سور القرآن الكريم بالحديث عن الأمم السابقة، عن صالحيها وعن مجرميها، وتحقق وعد الله لهم جميعا، للصالحين بالنصر، وللمجرمين بالمكر.

فالله يقص هذه الآيات على الناس؛ ليروا كيف تحققت شهادته بوحدانيته في تاريخهم أنفسهم، فيوقنوا بذلك.



وينبغي التفريق بين نوعين من الآيات السننية، الأولى هي ما ذكرتها آنفا، والثانية: الآيات التي يجعلها الله لأنبيائه؛ لتكون بينة على شهادته بصدق الرسول، ومن ثم فلدى قوم النبي فرصة لأن يؤمنوا به. كقوله: (هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً)، (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)، (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)، وقال: (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا). وقوله: (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)، وقوله: (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)، فهم كذبوا بالحق، أي بشهادة الحق، وبالآيات التي أقامها الله بينة على شهادته. فكل تلك آيات، وهي بينة على شهادة الله بصدق رسوله. قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ).



□

الحياة الطيبة والشقية:

كما اقتضت سنة الله سبحانه وتعالى بأن تكون الجنة هي دار السعادة الأبدية، ويدخلها من شهدوا بوحدانيته، فلهم فيها النعيم المقيم، والحياة الطيبة. واقتضت سنته أن تكون النار دار الشقاء الأبدي، ويدخلها من كذبوا بوحدانيته، فلهم فيها العذاب المقيم، والحياة الشقية. وآيات الكتاب الكريم كلها دالة على هذا الوعد.

ولكن الله أراد أن يذيق الناس [مؤمنهم وكافرهم] في الدنيا بعض ما وعدهم به في الآخرة، وهذا كما نقول (عَيّنة). مع أنه لا مقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

وهذه (العيّنة) جعلها الله سنة من سننه في النفوس، فقضى بالنعيم النفسي في الدنيا لمن شهد بوحدانيته، وقضى بالعذاب النفسي لمن كذب بها. والنعيم النفسي يسميه القرآن الكريم (الحياة الطيبة)، والعذاب النفسي يسميه (الحياة الضنك).

قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)،

وقال: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا).

وقال تعالى: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)،

وقال: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)،

وقال: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ).

ويبين لنا سبحانه لماذا هذا الشقاء لمن كفر به، ولماذا هذا النعيم لمن آمن به، قال تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)، فالمؤمن يعيش في سلام نفسي، واستقرار داخلي، وطمأنينة، يعرف أين يتجه ومن يقصد، بخلاف المشرك الذي يعيش في نزاع نفسي، واضطراب داخلي، ويعيش في ضيق وضنك، لا يدري إلى من يتجه، وماذا يقدم في حياته، وإلى من يلجأ. فمثلهم كمثل عبد مملوك لرجل واحد، وعبد مملوك لشركاء كثر فهم يتنازعونه ويتشاكسون فيه.

وقال سبحانه: (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ). فمَثَل المشرك كحال من خر من السماء؛ إذ لا شيء قوي يتعلق به، وعندئذ يصبح عرضة لما يتخطفه من طير، أو ينحدر إلى أعماق سحيقة، وكذلك من لم يتعلق بالله، فيهوي فتتخطفه الشياطين، والأهواء، والآفات

وقال جل شأنه: (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ). فمثل المشرك كمثل رجل حيران يتخبط في الأرض، لا يعرف أين يتجه، وكذلك المشرك

حيران فقد بوصلة الهدى الإلهي، فاستهوته الشياطين، وزادته ضلالاً وحيرة.

❖ ❖

وأما النعيم الحسي في الدنيا، من ثمرات وخيرات، وبركات، وأمن ورخاء، وقوة ونصر وتمكين - فقد قضى الله سبحانه وتعالى أن يكون للناس جميعا، فهو رهين بأسبابه التي جعلها الله من السعي، وإقامة القسط،

قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا).

وقال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)،

وقال: (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا).

وقال سبحانه: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)،

وقال: (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ).

وقد وعد الله المؤمنين إذا هم قاموا بالقسط كما ينبغي، وسعوا

في الدنيا كما أمروا، وأخذوا بأسباب النعيم في الدنيا، فإن الله يمنحهم بركات من ذلك، فيزيدهم من حيث لا يحتسبون، ذلك أنهم يتفوقون على الكافرين بقوة الإيمان. (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)، إذن فالوعد مرتبط بالفعل: الإيمان وإقامة القسط. (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ).

قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)،
وقال: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ).
وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)،
وقال: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)،
وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)،
وقال: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)،
وقال: (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

وقد حقق الله هذا في التاريخ البشري، وذكر القرآن نماذج كثيرة لذلك. كما حققه لهذه الأمة المؤمنة، فنصرهم الله في مواطن كثيرة، وكان التفوق المادي للكافرين،

قال تعالى: (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)،

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا)،

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ)،

وقال: (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ).

كما أن الله حقق في التاريخ البشري أنْ عذب أقواما نتيجة كفرهم، فأذاقهم لباس الجوع والخوف (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)،

وقوم سبأ أيضا (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ

سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ).

وقوم فرعون وقد كان ذلك آية لموسى، وردعا لهم حتى يؤمنوا (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ).

وهذا غير مطرد أيضا. فهناك أمم كثيرة كفرت ولكنها ظلت قوية مزدهرة، وأمم آمنت وظلت ضعيفة. فهذا كما قلت يرتبط بأسباب جعلها الله في الدنيا، فمن أخذ بها بلغ المراد.



غير أن النعيم الحسي في الدنيا، لم يجعله الله بينة مطردة على شهادته بوحدانيته، وقد بينت سابقا أن التفاوت بين الناس من سنن الله ليحقق الابتلاء بالميزان، ولذلك قد تجد مؤمنا فقيرا، وكافرا غنيا، وقد ضرب الله مثلا لذلك (صاحب الجنتين) في سورة الكهف، وقارون، وغيرهما.

قال تعالى: (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)،

وقال: (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ).

بل إن الله سبحانه وتعالى قد يجعل هذا النعيم من أسباب العذاب، حيث يرخي للناس، فيزدادون في الكفر أو الاستبداد أو الفجور..، ليبلغوا دركات من الشقاء، قد تكون في الدنيا وقد تكون في

الآخرة (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ).

وقد يجعل فقدانه من أسباب النعيم، فيبتلي المؤمنين بحرمانهم منه، ليبلغوا درجات من النعيم ما كانوا ليبلغوها دون الصبر،

قال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)،

وقال: (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)،

وقال: (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)،

وقال: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)،

وقال: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)،

وقال: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ).

وحتى أنبياء الله ورسله، تعرضوا للابتلاء،

قال تعالى: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)،

وقال: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا

لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)،

وقال: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ).

فموعدنا الجنة إن شاء الله، حيث الحياة الطيبة، اللهم بلغنا جنتك، وأسكنا في مساكنها الطيبة.

□

الطريق الثالث: إثباتها بالقسم:

يقسم الحق سبحانه وتعالى بخلقه على وحدانيته، فالقسم طريق من طرق إثبات شهادته بوحدانيته،

قال تعالى: (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ).

كما أقسم على بيناته التي نصبها على شهادته، فأقسم على خلقه للإنسان،

فقال: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ).

وقال: (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ).

وأقسم على قدرته سبحانه وتعالى، فقال:

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ).

وأقسم على حفظه لكل نفس

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ).

وأقسم على تسوية النفوس، وجعلها شتى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)،

وكذلك آيات سورة الشمس.

❖ ❖

كما أقسم على البعث، وأنه حق، والبعث كما ذكرت سابقا هو

بينة من بينات قيوميته، وقيامه بالقسط على كل نفس، حيث يتحقق فيه القسط تحققا تاما، كما يتحقق الحق تحققا تاما.

وقد أقسم الله على هذا اليوم في مواطن كثيرة، ومنه:

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)،

وقال: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)،

وقال: (وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ).

وكما أقسم بخلقه على البعث، فقد أقسم بنفسه سبحانه وتعالى، فقال: (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)، وقال: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ). فهو يقسم على أحداث ستكون في ذلك اليوم.

ولم يأمر رسوله أن يقسم بربه إلا على البعث، وذلك في ثلاثة مواضع:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)،

وقال: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ)،

وقال: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).

وقال تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)، قال ابن القيم: (وههنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به، وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه وهو أبر المقسمين، وأكده بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه، وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معايناً

مشاهداً بالبصائر وإن لم يعاين بالأبصار).

فقسم الله هو طرق من طرق إثبات شهادته بوحدانيته (أو بما يقسم عليه)، وليس مجرد تأكيد للكلام، وتقوية له، أو تفنن بلاغي. بل هو من صميم شهادته سبحانه، كما يقسم الشاهد في المحكمة، فيكون قسمه طريقا لإثبات الحقوق، والحكم بمقتضاها.

والمتأمل لقسم الله سبحانه وتعالى، يجد أنه يقسم بمخلوقاته واصفا لها، ووصفه وصف عالم بها، فهو يقسم بعلمه، كقوله: (والسماء والطارق...)، (والشمس وضحاها...)، وغيرها من الآيات التي هي مجال خصب للبحث العلمي. فقسمه بعلم يعني أنه يحمل دليله معه، إذ يعطي المستمع فرصة للتثبت من صدق القسم، وطريقه أن يتثبت من العلم الذي تضمنه القسم، فإن ثبت ذلك للمستمع، فإنه يعني أن ما أقسم عليه صادق أيضاً.

ومثل هذا كمثل من يقسم لآخر قسما، ويقول له: والدليل على صحة ما أقول لك: كذا وكذا.

□

ثانياً: طرق تحقق الإنسان من هذه البينات ودلالاتها

إن القاضي حين تأتيه بينات الشهادة، يتحقق من البينات، فإذا صدقت البينات فقد ثبتت الشهادة.

والقرآن الكريم هو الكتاب الذي تحدث عن تلك البينات، فهو (الوثيقة الإلهية) التي تضمنت علم الله. ولفتت نظر الإنسان إلى كل تلك البينات. وأمام الإنسان طريقان للتحقق من صدق البينات:

الأول: طريق الإثبات.

فطريق الإثبات، أن يفحص الإنسان هذه البينات، لينظر أتثبت الشهادة أم لا؟ وقد دعا القرآن الكريم في مئات الآيات الإنسان أن ينظر ويتبصر ويتفكر في هذه الآيات، فهي ستدله على إله واحد. قال أعرابي: إن البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أما يدلان على اللطيف الخبير.

والآيات الدالة على هذا الطريق كثيرة، ومنها:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)،

وقال: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)،

وقال: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)،

وقال: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ)،

وقال: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى)...

والثاني: طريق الإبطال.

فيبحث الإنسان عن إبطال تلك الشهادة، فإذا استطاع أن يبطلها بأي بينة من البينات، فلا حجة عليه، وإن لم يستطع فإن الحجة قائمة عليه، وهذا يثبت صدق الشهادة؛ إذ عجز الإنسان عن إبطالها.

قال تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)،

وقال: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ)،

وقال: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ)،

وقال: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)،

وقال: (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ)،

وقال: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)،

وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)،

وقال: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ).

وكقوله تعالى: (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ).

وقال تعالى: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ).

إلى غير ذلك من الآيات.

أسلوب القرآن الكريم في الحديث عن البينات:

أينما أجَلت نظرك في القرآن الكريم فستجده يتحدث عن هذه البينات، فينتقل من بينة إلى أخرى، ويعرض البينة في كل سياق بصورة تختلف عنها في السياق الآخر. وهذا يمثل وحدة مقصدية في القرآن الكريم كله، فكله جاء لبيان ألا إله إلا الله. وسأضرب مثلا لذلك سورة الذاريات.

فهي تبدأ بقسم الله على الحق، وحال الناس تجاهه بعضهم أفكوا عنه، وبعضهم صدقوه، وكل سيجد جزاءه. (آية ١ - ١٥).

ثم يتحدث عن بينة (الميزان)، فتصديق المؤمنين بها أثمر عملا صالحا [آيات: ١٦ -١٩].

ثم يتحدث عن بينة الخلق والربوبية والرزق والتسخير [آيات ٢٠ -٢٣]، ويقسم (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ)، أي إن الله حق.

ثم يتحدث عن بينة (السنن الخالية) [آيات: ٢٤ - ٤٦].

ثم يتحدث عن بينة الخلق [آيات: ٤٧ -٤٩].

ثم يقرر شهادته بوحدانيته [آيات: ٥٠ -٥١].

ثم يتحدث عن بينة إرسال الرسل [آيات: ٥٢ -٥٥].

ثم يتحدث عن الغاية من هذه الشهادة، وهي العبودية له، وجزاء من كفر به [آيات: ٥٦ - آخرها].

وهكذا تجد تمازج البينات، وهو التمازج الذي تحكمه خيوط من الوحدة والإبداع، فبينة السنن الخالية تجدها وسط بينات الخلق

والربوبية، وبينة الرسالة والكتاب تجدها مع بينة الرزق والتسخير... الخ. وبهذه الوحدة يستطيع المتدبر لكتاب الله أن يربط الخيوط التي يظن أنها مبعثرة.

ومثال آخر: في أول سورة الجاثية (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ). فهنا بينات: الخلق، والربوبية، والرزق، والإحياء والإماتة، والتسخير، وآيات الكتاب. فآيات الكتاب تُتلَى فيها الآيات الأخرى.

وتأمل قوله (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)، فجمع بين بينة الربوبية والتسخير، وبينة الرزق. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

❖ ❖

وما من سورة من السور إلا وهي تتلو هذه البينات، وتبينها، وتفصلها، وقد كان حديث القرآن الكريم عن هذه البينات، من منظورين:

المنظور الأول: كونها بينات دالة على شهادة التوحيد. والآيات السابقة تبين هذا المنظور.

والمنظور الثاني: الاستدلال لهذه البينات نفسها، وذلك بدعمها بالحجج المختلفة. كقوله تعالى: (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)، فهو يستدل لبينة الخلق بخلقهم وتعجيزهم عن خلق تلك النطفة.

وكقوله: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، فهو يستدل لبينة (الإحياء والإماتة)، وهي من أكثر البينات التي استدل لها؛ إذ لم يكذب الكافرون بشيء تكذيبهم بها.



□

ثالثاً: الغاية من هذه الشهادة:

البينات موجهة للإنس والجان:

هذه شهادة الله (أنه لا إله إلا هو)، وتلك بينات الشهادة. وغايتها عبادة الإله الواحد. وهذه البينات موجهة للإنس والجان. ذلك أن الله خلق الخلق بنظامين: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)، النظام الطَّوْعي، والنظام الكَرْهي [أي الجبري].

الأول: النظام الكَرْهي، فالله واحد قهار؛ كل مخلوقاته التي خلقت بهذا النظام تشهد بوحدانيته، وتسجد له، وتسبحه.

قال تعالى: (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)،

وقال: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)،

وقال: (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)،

وقال: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)،

وقال: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)،

وقال: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)...

وغيرها من الآيات.

فمخلوقات هذا النظام بطبيعتها تعبد الله كرهاً.

والثاني: النظام الطَّوْعي، وهو ما خلق عليه الثقلان (الإنس والجان)، فهم يختارون الطاعة أو المعصية، يختارون التصديق بالشهادة أو التكذيب بها، يختارون الإيمان أو الكفر. ومن ثم فالبينات موجهة لهم؛ إذ هم المدعوون إلى النظر فيها، ومن ثم الشهادة بالحق، وما يترتب على ذلك من الدخول في العبادة طوعا، (وهي العبادة التي دخلت فيها المخلوقات كلها كرهاً).

قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)، فهو يبين أنه ما خلق الجن والإنس إلا لتحقيق شهادته، وهي ألا إله إلا هو، فلم يخلقهم لسوى ذلك. وهم يحققونها بعبادته، ولذلك كانت الرسل تأتي قومها بهذا الأمر: (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ)، (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ)، (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)...

والله قد أشهد بني آدم على أنفسهم بهذا الحق، وشهدوا أنه ربهم، لا إله إلا هو، قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ).

وقد جاءت سورة الرحمن، لتخاطب هذين المخلوقين: الإنسان والجان، وتلفت أنظارهما إلى آلاء الله، وبعد كل بينة يعقبها قوله:

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ). وهذه السورة تبين أن الله سبحانه وتعالى علم الإنسان البيان، وهو القدرة على الاهتداء بالآيات البينات إلى الحق الذي شهد به الله سبحانه وتعالى، فيشهد به هو أيضا. وهذه السورة جاءت في محورين، الأول (من أولها إلى آية ٣٠)، واشتملت على البينات: الخلق، والربوبية، والرزق، والتسخير، والميزان، والإحياء والإماتة. كما بينت النظام القهري الذي خلقت عليه المخلوقات (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)، وعلى الإنسان والجان كذلك أن يسجدا.

والمحور الثاني من (٣١ – آخرها)، وبدأ بقوله: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)، قال الطبري: (وعيد من الله لعباده وتهديد، كقول القائل الذي يتهدّد غيره ويتوعده، ولا شغل له يشغله عن عقابه، لأتفرغنّ لك). فهو يقول لهم: هذه شهادتي وهذه بيناتي، وأنتم معنيون بها، وكل المخلوقات سواكم مستجيبة لها، مقرة بها. فلم يبق إلا أنتم، فإن شئتم آمنتم وإن شئتم كفرتم، فأنا أفرغ لحسابكم، بعد أن فرغت لإقامة الحجة عليكم. ودلالة (أفرغ) أعتني بالشيء أتم الاعتناء، فالله في الدنيا فرغ للثقلين ببيان بينات شهادته، وفي الآخرة سيفرغ لهم بحسابهم على الاستجابة لتلك الشهادة.

ولذلك جاء حديث السورة بعد ذلك عن مصير الإنس والجان، من آمن بالشهادة فله الجنة، ومن كفر بها فله النار.

وهذه الآية (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)، تدل على أن الحساب يوم القيامة لا يكون إلا للثقلين، فهم الذين يحاسبون، ثم يساقون إما إلى

جنة أو نار. أما بقية الأنفس فهي تحشر كما قال تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)، ويقتص لبعضها من بعض وفق سنة الميزان. كما في الحديث الذي رواه مسلم: «لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء، من الشاة القرناء». فالاقتصاص يتحقق؛ ليتم الله الميزان، وهو القسط الذي وضعه. فالبهائم داخلة فيه، كما بينت، ولذلك تعود ترابا بعد الاقتصاص منها. أما الإنس والجان فهم ذوو النظام الطوعي، ويكون القضاء بينهم بالحق: أي بموقفهم من الشهادة، ومن الميزان، ثم يكون الجزاء.



فقوله تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، تتحدث عن شهادة الله بوحدانيته، وقيامه بالقسط. وقد ذكرت أن الإنسان ليس مأموراً إلا بهذين الأمرين: الشهادة بما شهد الله به (الوحدانية)، والقيام بما الله قائم به (القسط). وقد جمع بينهما في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ).

ومنه قوله: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)،

وقال: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ)،

وقال: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ)،

وقال: (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ)،

وقال: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ).

فهو خليفة الله في أرضه، والخليفة يشهد بما شهد به مستخلِفه، ويقوم بما يقوم به مستخلِفه. قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)، وقد منح الله خليفته من الوسائل والأدوات ما يساعده على تحقيق الخلافة، وهي العلم والقدرة على استخدام العلم في تحقيق الخلافة، كقوله تعالى: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)، كقوله: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)، فهو علم خص به آدم؛ لأنه هو الخليفة في الأرض. وقد بينت آنفا أن هذا البيان الذي علمه الله الإنسان يجعله قادرا على إدراك بينات الشهادة. كما يجعله قادرا على القيام بالقسط في الأرض.

وقال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا).

فالتصديق بالشهادة هو جزء من الأمانة، والجزء الآخر هو القيام بالقسط في الأرض، ولذلك قال تعالى: (إنه كان ظلوما جهولا)، أي ظلوما يقصر في القيام بالقسط، جهولا يقصر في إدراك بينات الشهادة. فالبينات التي نصبها الله سبحانه وتعالى لتدل على شهادته بالحق تعالج قصور الجهل لديه، فلا يكون الجهل حجة له. والميزان الذي أنزله الله من السماء، يعالج طبيعة الظلم فيه، فلا يكون له حجة. فمن تعدى بعد ذلك فسيعذبه الله، وقد ذكرت الآية تعذيب المنافقين والمشركين، فالمشركون يعلنون تكذيبهم بالشهادة،

والمنافقون يكذبون بالشهادة ولكنهم يبطنون ذلك. أما المؤمنون فهم من يؤمنون بالشهادة، ويقومون بالقسط. (راجع: بحثَي: "فاطر السماوات والأرض"، و"قائما بالقسط").



الشهادة بوحدانية الله والقيام بالقسط:

وعودة إلى الآية (شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، فالشاهد بوحدانيته هو الله سبحانه وتعالى، وكذلك: الملائكة يشهدون بالحق، وأولو العلم يشهدون بالحق. أما الله فقد بينت كيف شهد بالحق، وأما الملائكة وأولو العلم فسأتحدث عن شهادتهم لاحقا.

والخلاصة أن هذه الآية جِماع آيات القرآن الكريم، فهي بينت أن الله شهيد بوحدانيته وقائم بالقسط.

والخلق كلهم خاضعون لهذين الأمرين.

فأما الشهادة بالوحدانية، فإن الخلق كلهم يشهدون بوحدانية الله سبحانه وتعالى. وأما الإنس والجن فإن مَن شهد بها في الدنيا فقد استحق النعيم المقيم، ومن كذب بها في الدنيا، فإنه سيشهد بها يوم القيامة، وسيشهد على نفسه أنه كفر بها في الدنيا (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ). ولكن الشهادة حينئذ لا

تنفعه، فيكون ﴿ العذاب المقيم.

ولذلك فيوم القيامة هو يوم الشهادة، جميع الخلق دون استثناء، مؤمنهم ﴿ الدنيا وكافرهم، يشهدون فيه بوحدانية الله سبحانه وتعالى، ولذلك أقسم الله به، فقال: (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)، فكل شيء ﴿ ذلك اليوم شاهد بأن الله واحد، ويوم القيامة هو اليوم المشهود فيه.

إذن فتحقق الشهادة تحققا كاملا سيكون يوم القيامة.

وأما القيام بالقسط، فإن الله قائم بالقسط على خلقه، وقد اختص الإنسان بهذا الأمر فأمره أن يقوم بالقسط ﴿ الدنيا، وأعطاه فرصة يستطيع بها أن يحقق هذا الأمر. ولا بد أن يتحقق القسط تحققا تاما. ولكنه لا يتحقق ﴿ الدنيا، كما نرى ذلك، ومن ثم فتحققه التام سيكون ﴿ اليوم الآخر. فيحاسب الله الخلق جميعا على القيام بالقسط ﴿ الدنيا، ثم يحاسب المؤمنين على التقصير ﴿ هذا الأمر، كما ورد ﴿ الحديث: «يَخْلُصُ المؤمنون من النار، فيحبسون على قَنْطَرَةٍ بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مَظَالِمُ كانت بينهم ﴿ الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِن لهم ﴿ دخول الجنة».

فالجنة لا يدخلها إلا موحد توحيدا لا شركَ فيه، قائم بالقسط قياما تاما. وهذان الأمران هما ما يحاسب الله عليه الناس ﴿ الآخرة، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا). فالشرك لا يغفره الله؛

ولا عذر للإنسان في كفره؛ لأنه كان قادرا على الإيمان، فهذا لا يرزؤه شيئا. وأما (ما دون ذلك)، فإن الله يغفره بعد أن ينقي الناس من أي تقصير كان منهم فيه.



والقرآن الكريم كله حديث عن هذين الأمرين: شهادة الله بوحدانيته [وبيناتها وغايتها]، وقيام الناس بالقسط. (انظر: قائماً بالقسط).

(٢) شهادة الملائكة بوحدانية الله

في قوله: (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ).

فالملائكة شهدوا بوحدانية الله، والشهادة بالشيء: إظهاره وتبيينه عن علم.

قال البغوي: (ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار)، وقال أبو حيان: (ومشاركة الملائكة وأولي العلم لله تعالى في الشهادة عطفا عليه لصحة نسبة الإعلام، أو صحة نسبة الإظهار والبيان، وإن اختلفت كيفية الإظهار والبيان من حيث إن إظهاره تعالى بخلق الدلائل، وإظهار الملائكة بتقريرها للرسل، والرسل لأولي العلم). وقال ابن عاشور: أن الشهادة قد تكون بمعنى الإظهار والبيان، (وبيّن ذلك الملائكة بما نزلوا به من الوحي على الرسل، وما نطقوا به من محامد، وبين ذلك أولو العلم بما أقاموا من الحجج على الملاحدة).

والذي يبدو لي أن شهادة الملائكة بوحدانية الله، يرجع إلى طبيعة خِلقة الملائكة أنفسهم، فالله خلقهم مسلمين له، خاضعين لمشيئته، ساجدين له، وهم لا يستطيعون إلا أن يعبدوا إلها واحدا. ثم إن الله جعلهم رسلا يرسلهم فيدبرون الأمر بين السماوات والأرض، وهم يطيعونه، ويتبعون أمره، فهم يعبدون إلها واحدا، ويتبعون ربا واحدا. فهم إذن شهداء بأنه ما من إله إلا الله.

قال تعالى: (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ)،

وقال: (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)،

وقال: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)،

وقال: (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)،

وقال: (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ).

فالملائكة شهدوا بوحدانية ربهم، بطبيعة خِلقتهم القائمة على التوجه لإله واحد، فطبيعتهم ليست اختيارية كالإنسان، إن شاء اختار الإيمان وإن شاء اختار الكفر (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)، ولكنها طبيعة أحادية، لا تستطيع إلا اختيار الإيمان.

وهم يُظهرون ما شهدوا به، من خلال قيامهم بعبادة ربهم، وتنفيذ أوامره بين السماوات والأرض، دون سأم، ودون عصيان.

وقد أقسم الله بما يعملونه من أعمال يدبر بها أمر السماوات والأرض وما بينهن، قال تعالى:

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا)،

وقال: (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)،

وقال: (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا)،

وقال: (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا).

فهذه أقسام متنوعة من الملائكة، يسميهم الله بما يعملون من

أعمال، وبما يدبرونه من الأمر بإذنه. فهم شهداء بأنه إله واحد لا إله إلا هو.

□

(٣) شهادة أولي العلم بوحدانية الله

المراد بأولي العلم:

ذكرت أقوال المفسرين في المراد بشهادة أولي العلم، فبعضهم قال: الإقرار والإيمان، وقال بعضهم: إقامة الحجة والتبيين. قال الواحدي في البسيط: (وشهادة أولي العلم، يجوز أن تكون بمعنى: الإقرار، ويجوز أن تكون بمعنى: التبيين). وقال أبو السعود: (أي آمنوا به واحتجوا عليه بما ذكر من الأدلة التكوينية والتشريعية). وقد اختلف المفسرون في المراد بأولي العلم، وخلاصتها كما عند أبي السعود: (قيل المراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل المهاجرون والأنصار، وقيل علماء مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه، وقيل جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة).

التحقيق:

الآية تجعل (أولي العلم) ثالث الشهداء بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وهي لا تعني الإقرار؛ فالمسلمون كلهم مقرون بشهادة الوحدانية، سواء أكانوا من أولي العلم أو من غيرهم.

قال تعالى: (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)، أي: الراسخون في العلم من المؤمنين، والمؤمنون ممن ليسوا براسخين في العلم، كلهم يؤمنون بما أنزل إليك. فعطف (أولي العلم) على (المؤمنين). وكقوله: (وَقَالَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ)، فجمع بين العلم والإيمان. وكقوله: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ).

كما أن لفظ (العلم) في القرآن الكريم، إذا ورد معرفة، فالمراد به: علم الله الذي ضمنه كتبه المنزلة. كقوله: (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)، (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)، (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا)... الخ. فالذين أوتوا العلم هم من نزل عليهم علم الله سبحانه وتعالى، سواء الأنبياء أو أتباعهم ممن أخذوا الكتاب المنزل فتعلموه، ورسخوا فيه (الراسخون في العلم)، ولم يؤمنوا به مجرد إيمان دون علم.

وعليه فـ(أولوا العلم)، هم الراسخون في العلم، الذين جاءهم العلم من الله فتعلموه ورسخوا فيه. سواء أكانوا أنبياء أم غيرهم. فهم شهداء بوحدانية الله سبحانه وتعالى.

والشهادة: إظهار وتبيين المشهود به، فالشهداء يشهدون الغيب (وهو الله وشهادته بوحدانيته وبينات شهادته) كأنهم رأوه، ثم يُظهرون للناس ما شهدوه.

فشهادة أولي العلم هي أن يبينوا ما شهدوا به للناس، وهذه هي وظيفة الأنبياء، كما قال تعالى عن عبده محمد صلى الله عليه وسلم: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، فهو يتلو عليهم آيات الله، وآياته بيناته سبحانه وتعالى على شهادته بوحدانيته.

وأولو العلم الذين يشهدون بوحدانية الله، هم من يتلون آيات ربهم، وهي بيناته على شهادته بالتوحيد، وهي الآيات المنزَلة، (ففيها علم الله). فهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ورثوا العلمَ الذي آتاهم الله، وقاموا بتلاوته على الناس، وهذا العلم يتضمن شهادة الله بوحدانيته وبيناته على تلك الشهادة، والأنبياء بينوا ذلك للناس، وحاجوهم بها (كما يخبرنا القرآن الكريم عن سيرهم، إبراهيم وغيره، عليهم السلام)، فأولوا العلم يرثون هذا العلم، ويبينونه للناس، فهذه شهادتهم بوحدانية الله.

كما يشمل ذلك: إظهار آيات قيوميته من الخلق والتدبير وغيرها. فكل من أقام الحجة وبينها على أنه ما من إله إلا إله واحد، فهو يتكلم بعلم الله الذي جعله بينة على شهادته بالتوحيد. قال تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)، فالله يريهم آياته، حتى يتبين لهم أنه الحق، فهذا البيان هو علم الله. فعلم الله يَبْلغُ الناسَ إما في آيات ينزلها على رسله فيبلغونها وقد استيقنوا أنها علم الله، وإما يبلغهم في آياته التي قامت بها مخلوقات (آيات القيومية)، فتتبين لأولي العلم، فيستيقنون أنها من علم الله.

وقد أخذ الله ميثاق من عنده علم من الله أن يبينه ولا يكتمه،

بدءا بالنبيين، وأتباعهم من أولي العلم، وكل من عنده علم من شهادة ربه وبيناتها، التي نصبها في خلقه، أو أنزلها في كتابه.

قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ)، (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ)، (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ).



وبهذا يتبين لنا أن الشهداء المذكورين في قوله: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)، (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)، (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). هم أولوا العلم الذين شهدوا بوحدانية الله في الدنيا (أي: أظهروا الشهادة وبينوها بالبينات التي جعلها الله بينات على شهادته). ولذلك يقرنهم الله مع النبيين، فهم ورثة النبيين، الذين يرثون علم الله منهم، ويبينونه للناس ولا يكتمونه.

أولوا العلم إذن هم: (مَنْ عندهم علم الله الذي أنزله في آيات كتابه، أو نصبه في آيات خلقه). وهم شهداء بوحدانية الله، (فقد تبين لهم الحق بيانا واضحا)، سواء أبينوا الشهادة أم كتموها.

فمن بيّن الشهادة فهو من الشهداء الذين أنعم الله عليهم، ويتم

لهم أجرهم ونورهم، ويأتي يوم القيامة مع النبيين الذين ورثهم فيشهد بوحدانية الله في ذلك اليوم كما شهد بها في الدنيا.

ومن كتم الشهادة، أو زورها، فقد ظلم نفسه، واستحق لعنة الله وغضبه، ولعنة اللاعنين. وسيأتي يوم القيامة وقد ختم على فمه، فلا ينطق، ولا يكلمه ربه. قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).



□

ونكون عليها من الشاهدين:

قال تعالى: (قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ).

قوله (وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ). قال الطبري: (ممن يشهد أن الله أنزلها حجةً لنفسه علينا في توحيده وقدرته على ما شاء، ولك على صدقكَ في نبوّتك)، وقال الماوردي: (يحتمل وجهين. أحدهما: من الشاهدين لك عند الله بأنك قد أديت ما بعثك به إلينا. والثاني: من الشاهدين عند من يأتي من قومنا بما شاهدناه من الآيات الدالة على أنك نبي إليهم وإلينا). وقال ابن عاشور: (أي من الشاهدين على رؤية هذه المعجزة فنبلغها من لم يشهدها).

فالآية تبين أن الحواريين يشهدون على هذه الآية (مائدة نازلة من السماء)، وهم يشهدون بعلم المشاهدة. فهم رأوا الغيب رأي العين، فشهدوا بما رأوه. فشهادتهم على هذه البينة، تجعلهم شاهدين بوحدانية ربهم شهادة الرائي المطلع لا شهادة العالم المستدل. وهذا قولهم (ونعلم أن قد صدقتنا)، فهم يعلمون يقينا أنه قد صدقهم، ولكنهم أرادوا أن يجتمع لهم علم المشاهدة مع علم الاستدلال.

وشهادة الأنبياء بوحدانية ربهم هي من هذا القبيل، فهم يطلعون على الغيب اطلاع مشاهدة ورؤية، فيجمعون بين علمين: علم المشاهدة، وعلم الاستدلال. وكلاهما يؤديان إلى اليقين، ولذلك قال أحد الصالحين: (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا)، فاليقين قد حصل باستدلاله وتصديقه دون أن يشاهد.

وهذا ما جعل إبراهيم يسأل ربه، فقال: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)، فاطمئنان قلبه بإضافة علم آخر إليه، وهو علم المشاهدة، وإلا فإبراهيم قد آمن واطمأن قلبه واستيقن، بإيمانه وعلمه. وهذا ما جعل موسى يسأل ربه، فقال: (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي). فهو مؤمن إيمانا يقينيا، وعلمه علم يقيني بأن ربه حق. فطلب أن يعلم ذلك من طريق آخر، وهو المشاهدة، وهو لا يزيده يقينا (فزيادة اليقين تعني نقصانه)، ولكنه يزيد من الطرق الموصلة إلى اليقين.

فشهادة أولي العلم بوحدانية الله قائمة على التصديق الجازم، المؤدي إلى اليقين، ولذلك فهم يشهدون بها شهادة من رأى الغيب واطلع عليه، فهم شهداء. فالشهداء يشهدون الغيب (وهو الله وشهادته بوحدانيته وبينات شهادته) كأنهم رأوه، ثم يُظهرون للناس ما شهدوه، ويدعونهم إليه.

❖ ❖



ويتخذ منكم شهداء:

الشهيد هو كل من يبين شهادة التوحيد، بعلم وحجة، وبيانهم هو جهاد، وهو بهذا الاعتبار يعد مجاهدا في سبيل الله، قال تعالى لنبيه: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا).

قال تعالى: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ). فالشهداء الذين يتخذهم الله سبحانه وتعالى هم بعض المؤمنين. وقد فسر المفسرون الشهداء في الآية بأنهم القتلى في سبيل الله، وأكثرهم خصها بالذين قتلوا في أحد.

غير أن المطرد من استخدام القرآن الكريم للفظ (الشهداء) و(الشهيد) لم يرد بمعنى القتيل في سبيل الله، وحيثما ذكر القتيل في سبيل الله، ذكره كذلك، كقوله: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا).

وسياق الآية يفيد أن الحديث عن من قتل في سبيل الله في يوم أحد.

فالذي يبدو لي في معنى الآية، أن الله اتخذ من المؤمنين هؤلاء الذين قتلوا في أحد، اتخذهم شهداء، فهم خرجوا من بيوتهم مجاهدين في سبيل الله، وجهادهم في سبيل الله إعلاء لشهادة التوحيد في الأرض، فهم يبذلون دماءهم؛ حتى يرفعوا كلمة التوحيد في الأرض، وحتى يزيلوا الطواغيت الذين يحولون دون إعلان وحدانية الله في الأرض. فهم شهدوا بوحدانية ربهم، وبينوا هذه

الشهادة بالجهاد، وماتوا وهم على هذه الشهادة. ومن ثم فقد تحقق أنهم شهداء حتى قتلهم، ولم يرجعوا عن شهادتهم، ولم يكتموا.

فمن جاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا في الأرض، فهو داعية إلى شهادة التوحيد، وهو أحد الشهداء، فإن مات مجاهدا مقبلا غير مدبر فهو من الشهداء الذين اتخذهم الله، وهو من الشهداء الذين شهدوا بوحدانية ربهم.

فالذين اتخذهم الله شهداء، هم الشهداء الذين ماتوا أو قتلوا وهم شاهدون بوحدانية ربهم. فقد يكون الإنسان شهيدا، ثم ينكل عن شهادته فلا يموت عليها، فهو ليس بشهيد.



فاكتبنا مع الشاهدين:

ولذلك فإن المؤمنين يسألون الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم مع الشاهدين، أي يتخذهم شهداء، (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)، فهم يقولون: يا رب نحن نشهد في الدنيا بوحدانيتك، فاتخذنا شهداء (أي: أمتنا على الشهادة)، واجعلنا يوم القيامة من الشهداء.

وقوله تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)، فمعرفة الحق [علم]، والإيمان به [حق]، وهذان هما أركان الشهادة، ولذلك دعوا ربهم أن يكتبهم من الشاهدين؛ بما عرفوا من

الحق، وآمنوا به.



من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين:

قال تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا).

في الطبري، [بتصرف]: ("الصديقون"، تُبَّاع الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقوا بهم. وقيل المتصدقون. و"الشهداء"، جمع "شهيد"، وهو المقتول في سبيل الله، سمي بذلك لقيامه بشهادة الحق في جَنب الله حتى قتل. "والصالحون" كل من صلحت سريرته وعلانيته). وفي القرطبي: (والصديق هو الذي يحقق بفعله ما يقول بلسانه).

أما الصديق فهو من صدّق بربه وآياته، دون أن يخالجه ريب، وصدّقت أفعالُه اعتقادَه، فهو يؤمن بالغيب كأنه يراه، ومن ثم فلا يقصر في حسنة ولا يتهاون في سيئة، وهي أعلى المراتب بعد النبوة. ولا يكون صديقا إلا من كان من أولي العلم، ومن ثم فهو من الشهداء الصالحين.

وأما الشهداء فهم أولو العلم الذين يشهدون بوحدانية الله، ويبينونها للناس، ويجاهدون بأنفسهم وألسنتهم في تحقيق شهادة التوحيد، ويبذلون أرواحهم ويسترخصون دماءهم وحياتهم في سبيل

ربهم الواحد القهار، سواء أقتلوا أم ماتوا. (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ).

وأما الصالحون فهم من يعملون الصالحات، ويقومون بالقسط في كل كسب يكسبونه، يتبعون شريعة الله، ويخلصون لربهم الدين. فهم يقرون بشهادة التوحيد ويعملون بمقتضاها، ولكنهم لا يبينونها للناس، فشهادتهم شهادة إقرار لا شهادة بيان، ولذلك لا يوصفون بأنهم شهداء.

والعطف في الآية عطف مراتب متداخلة لا فئات متباينة؛ فالنبيون هم صديقون شهداء صالحون. والصديقون هم شهداء صالحون، والشهداء صالحون أيضا. وبهذا فالنبي يجمع الصفات كلها، والصديق يجمع صفات: الصديقية والشهادة والصلاح. والشهيد يجمع صفات الشهادة والصلاح. والصالحون يتصفون بصفة الصلاح فقط.

ولذلك فالشهداء في قوله تعالى: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). يشمل الصديقين (الذين جمعوا مع صفة الشهادة صفة الصديقية والصلاح)، أو الشهداء الذين ليسوا بصديقين.

□

(٤) لا شهداء على الشرك

قال تعالى: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

المشهود به هو الأمر الظاهر، وهو الحق البين، فمن شهد به فقد شهد بالحق. والله شهد بهذا الحق (ألا إله إلا هو)، فعلم الناس أن هذا هو الحق وما عداه فهو الباطل، فأي شهادة بالباطل فهي باطلة، بيّن بطلانها. (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

فالآية تنكر على المشركين شهادتهم بأن مع الله آلهة أخرى، فكيف يشهدون بباطل. ويأمر رسوله بالبراءة من شهادتهم، كما تبرأ رسل الله وأتباعهم من شهادة المشركين: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)، (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

والله سبحانه وتعالى شهد بالحق، وبين هذه الشهادة، فهو أحقّها، وأبطل كل شهادة باطلة، (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)، فالبينات التي أقامها الله على شهادته بالحق تُبطل كل شهادة باطلة، وتزهقها، فتذهب جفاء (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)، أي: بل نقذف بشهادة الحق وبيناتها على شهادة الباطل فإذا الباطل زاهق، والآية تتحدث

عن شهادة الحق وهو التوحيد، والباطل وهو الشرك. (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)، (وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ).

ومن ثم فلا أحد يجرؤ على أن يشهد بأن مع الله آلهة أخرى؛ إذ هي شهادة باطلة. وبالرغم من ذلك فإن الكافرين يجادلون بهذه الشهادة الباطلة (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ)، (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)، (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ). ومن فعل ذلك في الدنيا، فقد افترى الكذب، وسيدفع ثمن شهادته الباطلة، ولكنه ثمن باهظ، إنه العذاب المقيم.



□

(٥) إشهاد الله الناسَ بوحدانيته

قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

فالله أشهد بني آدم، والمشهود به: وحدانيته سبحانه وتعالى، وبينها بربوبيته، والمشهود عليه (على أنفسهم) فهم المستشهَدون وهم المشهود عليهم، فهم يشهدون على أنفسهم بذلك فلا تكون لهم حجة على الله، لا بغفلتهم ولا بغفلة آبائهم. وذلك ما يكون يوم القيامة حين تشهد عليهم أنفسهم (أيديهم وأرجلهم...).

وإشهاد الله عليهم بوحدانيته دليل أن الأمر ظهر لهم ظهورا بينا، فأدركوه يقينا، وشهدوا به، (وإن نكثوا العهد بعد ذلك). وهذا فيه دلالة على أنه أشهدهم وهم موجودون، ووجودهم كان في عالم الغيب لا في عالم الشهادة.

والرسل جاءت لتذكر الناس بهذه الشهادة، والكتب نزلت لتقيم عليهم الحجة، قال تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)، وسمى رسله: أهل الذكر (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). وكانوا يخاطبون قومهم (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ).

كما سمى الله كتبه: ذكرا، فهو ذكر يذكر الناس بما شهدوا به (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ)، وقال عن القرآن الكريم: (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ). وقال: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ)، أي: فيه الذكر الذي يذكركم.

والله فصل الآيات وبينها لقوم يتذكرون: (قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ). ونعى على من لم يتذكر: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ).

قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)، ومعنى الآية: (إن في ذلك)، أي: ما تقدم من آيات بينات في سورة ق، آيات أقامها الله على شهادته بوحدانيته، (لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع)، أي: تذكرة تذكره شيئا قد علمه وأقر به، ولكنه نسيه، فما يتذكر إلا من كان له قلب يخشى ربه بالغيب (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)، وهؤلاء هم أولو الألباب (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)، أو ألقى السمع فأصغى ووعى، كما قال: (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ).

(وهو شهيد)، أي: وهو شهيد بذلك الحق، فهو شهد به حين كان في عالم الذر، والأنبياء إنما جاءوا يذكرونه بما شهد به، سواء أخَشِيَ أو شَقِيَ. قال تعالى: (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)، وقال: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ). فالآية هذه تفسرها آية الأعراف.



وأما قوله تعالى: (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)، فهو من الشهود، أي: ما شهدوا خلق السماوات والأرض، ولا خلق أنفسهم. وكل البشر كذلك (مؤمنيهم وكافريهم) لم يشهد أحد منهم خلق السماوات والأرض ولا خلق نفسه. وقد حملها بعض المفسرين على آية الأعراف، وليس كذلك، بل هي من الشهود، فهو خلق لم يشهدوه. وإشهاد الله لهم بوحدانيته هو إشهاد على بني آدم كلهم (مؤمنهم وكافرهم)، فكل إنسان قد أشهده ربه بأنه إله واحد، فشهد بذلك. ولذلك تأتي الرسل فتذكر الناس بشهادتهم، وتبصرهم بآيات الله التي جعلها بينة على شهادته.

ومثل هذا قوله تعالى: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)، أي: أشهدوا خلقَ الملائكة، فعلموا (أنها إناث) كما يزعمون، ومن ثم زعموا أن الملائكة بنات الله؟! كيف يقولون ذلك وهم لم يشهدوا خلق الملائكة (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)، أي: ستكتب شهادتهم التي يشهدون بها أن الملائكة بنات الله، وسوف يسألون عنها، فكل شاهد سيسأل عن شهادته.

فالآية تبين أنهم لم يشهدوا ذلك الخلق فكيف يشهدون بشيء لم يشهدوه؟!

□

(٦) إشهاد المؤمنين ربَّهم بشهادتهم بوحدانيته

قال هود عليه السلام: (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ). أي أطلب شهادة الله عليَ ببراءتي من الشرك، فشهادة الله عليه: علمه به ثم مجازاته بذلك. كما قال الحواريون: (قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ). فالمؤمنون يُشهدون ربهم بإسلامهم له، وبإيمانه به، وبشهادتهم بما شهد به أنه إله واحد لا شريك له.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشهد الله حين يصبح وحين يمسي بشهادته بوحدانيته وبراءته من الشرك، (اللهم إني أصبحت أشهدك، وأشهد حملة عرشك، وملائكتك وجميع خلقك، أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك).

فاللهم إني أشهدك بأني شهدتُ بما شهدتَ به ألا إله إلا أنت قائما بالقسط.

□

(٧) جدال شهود الباطل

تلك شهادة الله بالحق، وتلك بينات الشهادة، وهذه الشهادة هي ما جاءت ببيانها الرسل وتعليمها، وغاية العلم هو العلم بها: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ).

وقد سجل القرآن الكريم شهادات شهود الباطل، التي شهدوا بها زورا وبهتانا. وجادلهم في ما شهدوا به.

وهي تشمل شهادات من أنكر وجود الله، أو ادعى له شريكا، أو ادعى له ولدا، أو أنكر قيامه بالقسط...

ومن تلك الشهادات:

شهادة من شهد أن أحد الخلق هو الله:

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وشهادة من شهد أن هناك أكثر من إله:

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ).

وشهادة من شهد أن لله ابنا:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ).

وشهادة من شهد أن لله بنين وبنات:

(وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ).

وقال: (قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ).

وقال: (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا).

وقال: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

وقال: (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ).

وقال: (تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ).

وشهادة من شهد أن غير الله يحق له التشريع:

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

وشهادة من شهد ألا بعث ولا نشور:

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ).

... الخ.

❖ ❖

وقد أمر الله المؤمنين بأن يتبرؤوا من شهادة المبطلين: (قُلْ أَيُّ

شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ). وألا يقولوا إلا الحق: (حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ).



وصلى الله وسلم على رسوله الأمين، المبعوث رحمة للعالمين.